الشعر بين اللغويين والعروضيين

بقلم: الدكتور علي ابو المكارم

في تراثنا العربي تتعدد الاتجاهات في تحديد (مفهوم) الشعر إلى أبعد غايات التعدد وأقصاه ، وهي ـ في تعددها ـ تؤكد بصورة لا سبيل معها إلى الشك بأن تحليل الشعر وتحديد مقوماته قد لقي في هذا التراث عناية لعلها تفوق ـ في بعض صورها ـ ما أثر من عناية الفكر الغربي بتحديد مفهوم الشعر والإشارة إلى مقومات الإبداع فيه .

ولعل مرد هذه التفرقة بين التراثين إلى أن الذين عنوا بتحديد مقومات الشعر في التراث الغربي بشكل مباشر فريقان هما : الأدباء والنقاد ، أما في تراثنا العربي فإن من الممكن أن نجد ، بالإضافة إلى عناية الأدباء والنقاد بتعريف الشعر وتحديد مقوماته وذكر عناصره ، تعريفات أخرى تحاول أن تشارك في جلاء صورة الشعر عند أصحابها ، من لغويين ، وعروضيين ، وفقهاء ، ومفسرين ، ومتكلمين ، ومؤرخين أيضاً . وهي جميعاً محاولات تثري مفهوم الشعر وتنير أبعاده ، وتجلو مقوماته وتوضح خصائصه ، لما فيها من تعدد في زوايا الرؤية واختلاف في طرائق التحليل ، ولما يستلزمه هذا التعدد والاختلاف من إضاءة لكافة جوانب الظاهرة وكشف لمجالاتها . وسنحاول ـ في هذا البحث ـ أن نقف على (مفهوم) الشعر عند اللغويين والعروضيين ، علنا نحيط بمقومات الشعر عند هذين الفريقين ، حتى ندرك ما بينهما من صور الاتفاق والاختلاف ، أو بتعبير آخر : حتى نستكشف الأرض المشتركة بينهما والحدود الفاصلة لكليهما .

أما الشِّعر عند اللغويين العرب فإنه ينطلق في مفهومهم مما تحمله المادة اللغوية من دلالات ومعانٍ ، وأنت حين تعود إلى مشتقات هذه المادة لتستوحي دلالاتها وتستقرىء معانيها سوف تجدها تلتقي حول محورين أساسيين : أولهما الإحساس والشعور ، وثانيهما العلم والفطنة[1] ، وأنت إذا عدت إلى القرآن

---

(١) أنظر مادة (شعر) في المعاجم العربية .

الكريم نفسه - وهو أدق نص لغوي في العربية - سوف تجد أن هذه المادة ومشتقاتها قد وردت في نحو أربعين موضعاً[1] ، من بين هذه المواضع موضع واحد استخدم فيه لفظ (الشعر) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾[2] ، وأربعة مواضع استخدم فيها لفظ (شاعر) ، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾[3] ، وقوله تعالى في سورة الصافات : ﴿ ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾[4] ، وقوله سبحانه في سورة الطور : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾[5] ، وقوله جل شأنه في سورة الحاقة : ﴿ وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ﴾[6] .

كذلك استخدم في القرآن الكريم لفظ الجمع (شعراء) مرة واحدة ، في قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾[7] .

كذلك وردت بعض صيغ المشتقات الفعلية لهذه المادة في الكتاب العظيم ، فقد جاءت صيغة المضارع مسندة إلى ضمير جماعة المخاطبين في أربعة مواضع ، وذلك في قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾[8] ، وقوله جل شأنه في سورة الشعراء : ﴿ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴾[9] ، وقوله عز من قائل في سورة الزمر : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾[10]، وقوله سبحانه في سورة الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾[11]. كما وردت هذه الصيغة مسندة إلى ضمير جماعة الغائبين في واحد وعشرين موضعاً لا تخرج معاني المادة فيها جميعاً عن المعنيين الأساسيين المطردين فيما ورد لها من نصوص ، وهما الإحساس والشعور من ناحية ، والعلم والفطنة من ناحية أخرى ، وحسبنا أن نختار منها هذه الآيات : قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[12] ،

---

(١) انظر الإحصاء في : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .
(٢) من الآية (٦٩) من سورة (يس) .
(٣) من الآية (٥) من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية (٣٦) من سورة الصافات .
(٥) من الآية (٣٠) من سورة الطور .
(٦) من الآية (٤١) من سورة الحاقة .
(٧) من الآية (٢٢٤) من سورة الشعراء .
(٨) من الآية (١٥٤) من سورة البقرة .
(٩) من الآية (١١٣) من سورة الشعراء .
من الآية (٥٥) من سورة الزمر .
(١١) من الآية (٢) من سورة الحجرات .
(١٢) الآيتان : (٨ - ٩) من سورة البقرة .

وقال سبحانه في سورة النمل : ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾[1] ، وقال في سورة القصص : ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾[2] ، وقال في سورة العنكبوت : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾[3] .

وواضح أنه ليس بين هذه النصوص كلها ـ وغيرها مما ورد في القرآن الكريم من مادتها ـ ما يخرج عن ذينك المحورين الرئيسين للمادة اللغوية ، ذلك الذي يتصل بالإحساس والشعور ، وذلك الذي يرتبط بالعلم والفطنة ، أو لنقل إن المادة تنبىء بفطنة العقل والقلب معاً ، وتوحي بتوهج الإحساس وصدق النظرة جميعاً ، وكأن المادة اللغوية تُلْمِح ـ من خلال استخدامها في النصوص المتعددة ـ إلى ما يمكن اعتباره من قبيل تكامل الخبرات الإنسانية وتآزرها ، بحيث إذا أمكن اتصاف مشاعر الإنسان بشيء لم يكن بد من أن تتجلى هذه الصفات في مقدرته العقلية على نحو أو آخر . وهذه الظاهرة صحيحة إلى مدى لا سبيل إلى تجاهله ، فإن الإنسان حين يتناول الأشياء أو يفسر العلاقات ، أو يتخذ موقفاً من الأحداث ، فإنما ينطلق من تجاربه بأسرها ، فهذه التجارب هي التي تصوغ آخر الأمر مواقفه ، وتحدد له اتجاهاته ، بل إنها تكيف فيه مشاعره أيضاً .

وإن المتأمل للنصوص التي حاول اللغويون بها تقديم صورة من فكرتهم عن الشعر ، يجد أنها جميعاً تلتقي على حقيقة لا يناقضها منهم أحد ، تلك الحقيقة هي الربط بين هذه المعاني اللغوية وتلك الصورة الذهنية أو الفكرة الكلية عن التجربة الشعرية ، ثم إنهم يختلفون فيما بعد ذلك على نحو يمكن أن نميز فيه اتجاهين واضحين :

أما الاتجاه الأول فإن أصحابه لا يعنون بتقديم صورة ذهنية محددة للشعر ، ومن ثم لا يلجئون إلى تعريفه ، اكتفاء بتلك الدلالات المستوحاة من المادة اللغوية وحدها ، على رأس هؤلاء :

ـ الخليل بن أحمد ، الفراهيدي ، أو الفرهودي ، (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) ، الذي يقول في معجم العين[4] : « الشعر : القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، وسمي شعراً لأن الشاعر يفطن له بما لا يفطن له غيره من معانيه ، ويقال : شعر شاعر ، أي : جيد ، كما تقول : سبيل سابل ، وطريق سالك ، وإنما هو شعر مشعور » وجلي أنه لم يقدم للشعر تعريفاً ، مستغنياً عن تقديم الصورة الذهنية التي يكونها التعريف بالإشارة إلى علامات لم يشأ أيضاً أن يفسرها ، مكتفياً

---

(١) من الآية (١٨) من سورة النمل .

(٢) من الآية (١١) من سورة القصص .

(٣) من الآية (٥٣) من سورة العنكبوت .

(٤) معجم العين ، تحقيق عبد الله درويش ص ٢٨٩ .

بالإحالة إلى المعاني المستفادة من المادة اللغوية ذاتها .

وقد نهج سبيل الخليل عدد كبير من اللغويين ، كابن دريد : أبي بكر محمد بن الحسن (٢٢٣ - ٣٢١) الذي يكتفي في كتابه : « جمهرة اللغة » بقوله : « وسمى الشاعر شاعراً لأنه يشعر للكلام »[١] .

والأزهري : أبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح (٢٨٢ - ٣٧٠ هـ) ، الذي يقول في : « تهذيب اللغة » : « وشعر لكذا : فطن له ، وقال الليث : شعرت بكذا أشعر : أي فطنت له وعلمته ، وليت شعري : ليت علمي ، وما يشعرك : ما يدريك . قال : والشعر : القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، وقائله شاعر ؛ لأنه يشعر ما لا يشعر غيره : أي يعلم »[٢] .

وابن فارس : أبي الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا (٣٩٥ هـ) الذي يقول في معجمه « مقاييس اللغة » : « شعرت بالشيء : إذا علمته وفطنت له ، وليت شعري : أي ليتني علمت . . قالوا وسمي الشاعر لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره ، قالوا : والدليل على ذلك قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

يقول : إن الشعراء لم يغادروا شيئاً إلا فطنوا له »[٣] .

والجوهري : إسماعيل بن حماد (٢٩٨ هـ) الذي يقول في كتابه : « الصحاح » : « شعرت بالشيء أشعر به شعراً : فطنت له ، ومنه قولهم : ليت شعري ، أي : ليتني علمت . . . وقال الأخفش : الشاعر مثل لابن وتامر ، أي صاحب شعر ، سمي شاعراً لفطنته »[٤] .

والزمخشري : جار الله أبي القاسم محمود ابن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) الذي يقول في معجمه : « أساس البلاغة » : « ما شعرت به ، أي : ما فطنت له وما علمته ، وما يشعركم : وما يدريكم ، وهو ذكي المشاعر ، وهي : الحواس »[٥] .

وأما الاتجاه الثاني فإن أصحابه يعنون بتقديم صورة ذهنية محددة للشعر ، غير مغفلين دور الدلالات المستفادة من المادة اللغوية ، بل مؤكدين هذه الدلالات ، وعلى رأس هؤلاء : أبو حاتم الرازي : أحمد بن حمدان (٣٢٢ هـ) صاحب كتاب : « الزينة

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد جـ ٢ ص ٣٤٢ .
(٢) تهذيب اللغة للأزهري ، جـ ١ تحقيق عبد السلام محمد هارون ص ٤٢٠ .
(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق عبد السلام محمد هارون جـ ٣/ ص ١٩٤ .
(٤) الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار جـ ٢/ ص ٦٩٩ .
(٥) أساس البلاغة للزمخشري ٣٣١ .

في الكلمات العربية الإسلامية » الذي يقول فيه : « الشعر هو الكلام الموزون على روي واحد ، المقدم على حذو واحد ، قد حذى البيت بالبيت حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة ، حتى لا يخالف بعضه بعضاً في الوزن والروي ، وإنما سموه شعراً لأنه الفطنة بالغوامض من الأسباب ، وسموا الشاعر شاعراً لأنه كان يفطن لما لا يفطن له غيره من معاني الكلام وأوزانه ، وتأليف المعاني ، وإحكامه ، وتثقيفه ، فكأنه لا يفوته من هذه الأسباب كلها شيء ، قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعدهم توهم

يعني أن الشعراء لم يدعوا شيئاً إلا فطنوا له »(1) .

وواضح لديك من هذا النص أنه يختلف في منهجه في تحديد الشعر عن الاتجاه الأول ؛ فإن أبا حاتم حريص على أن يذكر للشعر تعريفاً يصور خصائصه عنده ، ويحدد عناصره لديه ، والشعر كما رأيت من تعريفه يتسم بسمتين في الشكل تميزانه عن غيره من أجناس الأدب وفنون القول ، وهاتان السمتان هما : الوزن ، والتقفية ، ألا تراه يقول : الشعر هو الكلام الموزون على روي واحد ، ويقول : والشعر يجب أن يتسم بالاتساق حتى لا يخالف بعضه بعضا في الوزن والروي .

بيد أنه لا ينبغي أن نتوهم أن هذه الخصائص (الشكلية) هي كل مقومات الشعر عند أصحاب هذا الاتجاه ، ولعلك فطنت إلى ما في تعريف أبي حاتم من إشارة إلى بُعْد آخر غير ما في الشكل من خصائص وسمات ، وذلك حين ربط بين المادة اللغوية ومفهوم الشعر ذاته ، وكأنَّ الشعر ـ فضلاً عما فيه من وزن وتقفية ـ لا بد أن يعبر عن معان خاصة به ، بحيث لا يفطن إليها إلا الفطن من الناس ، كذلك لا بد أن يحكم الشاعر بناء عمله الشعري ، وأن يتأنق في صياغته ، فلا يدع شيئاً فيما يقول إلا نظر فيه بعين العقل وفيض القلب معاً .

وقد سلك سبيل الرازي عدد من اللغويين العرب ، منهم ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) الذي يقول في معجمه الكبير : « لسان العرب » : « والشعر منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً »(2) ، وينقل عن الأزهري قول الخليل ابن أحمد : « الشعر : القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها »(3) ، ثم يذكر في نهاية حديثه ذلك التعبير المأثور الذي يقرر أن الشاعر إنما سمي شاعراً لفطنته(4) . وهو بهذا

---

(1) الزينة لأبي حاتم الرازي ، تحقيق حسين الهمداني ٨٣ ـ ٨٤ .
(2) لسان العرب لابن منظور جـ ٤/ص ٤١٠ .
(3) المصدر السابق .
(4) المصدر نفسه .

كله يقترب من الرازي منهجاً وإن وشح حديثه عن المادة بنصوص مأثورة عن السابقين من اللغويين ، لأنه حرص على تقديم صورة ذهنية واضحة لمفهوم الشعر ، صورة تحدد خصائصه الشكلية من ناحية ، وتلمس جوانبه الداخلية من ناحية أخرى ، وإذا كانت الخصائص الشكلية جلية في إشارته إلى الوزن والقافية ، فإن الجوانب الداخلية مرعية في تلك الكلمات التي يمكن اعتبارها نوعاً من المقارنة بين الشعر والعلم ، في صدور كل منهما عنده عن المعرفة والادراك أو الشعور والاحساس ، ثم يؤكد هذا المعنى بذكر النص المأثور الذي يربط بين الشعر والفطنة ، فطنة العقل والقلب معاً .

ويتبع ابن منظور الفيروزابادي : أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد (٧٢٩ - ٨١٧ هـ) فينقل نص ابن منظور في معجمه : « القاموس المحيط » لا يكاد يغير فيه شيئاً حين يقول : « والشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً »[1] . ثم الزبيدي : أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ) الذي يحاول استيعاب كل ما ورد لهذه المادة من معانٍ ، ومن ثم يجمع بين الأسلوبين : أسلوب استيحاء الدلالات اللغوية ، وأسلوب ذكر الصورة الذهنية معاً[2] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى العروضيين وجدنا تصورهم للشعر أكثر وضوحاً من اللغويين ، وتحديدهم لعناصره أشد دقة من حيث مراعاة الجوانب (الشكلية) فيه ، ولكنه أقل حظاً من حيث إدراك المقومات الداخلية له . فهم يعرفون الشعر بأنه : « كلام موزون قصداً بوزن عربي »[3] . وهم لا يكتفون بهذا التعريف يقدمونه للقارىء يستوحيه ويفسره من خلال ثقافته بالشعر ورؤيته لأبعاده ووعيه بطبيعته ، بل يضيفون له شرحاً منطقياً يمكن اعتباره بمثابة أسوار تحرس موقف العروضيين حتى لا تختلط بمواقف غيرهم من باحثين في الشعر ودراسين . وخلاصة هذا الشرح أن لفظة (كلام) في التعريف لكي تخرج ما قد يصاغ من مركبات إيقاعية ملتزم فيها الوزن دون فائدة فيها . ولفظة (موزون) تخرج ما لا وزن له ، وأما لفظة (القصد) فقد أريد بها إخراج نوعين من التعبير :

أولهما - الكلام الموزون الذي لا يقصد كونه شعراً ، لأن قائله قد قاله عفواً دون إرادة منه للتعبير الشعري ، كما وقع ويقع من كثير

---

(١) القاموس المحيط للفيروز بادي جـ ٢ / ص ٥٩ .
(٢) تاج العروس للزبيدي جـ ٢ / ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٣) حاشية الدمنهوري ١٤ ، ولا تخرج بقية تعريفات العروضيين عن هذا المعنى ، وحسبك أن ترجع إلى بعض التعريفات التي نقلها الدماميني في : العيون الغامزة على خبايا الرامزة ص ١٧ للتأكد من ذلك .

من الناس قديماً وحديثاً ، وقد روى الجاحظ والباقلاني وابن عبد ربه وابن قتيبة في هذا الشأن كثيراً من النوادر الطريفة[1] ، كذلك الغلام الذي أصابه وجع فقال : اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى ، فإنك لو وزنت هذه الكلمات لوجدتها على مثال : فاعلاتن مفاعلن : فاعلاتن مفاعلن ونحو ذلك قول القائل : أغلق الباب وآتني بالطعام ، وقول الآخر : أكرموا من لقيتم من بني تميم ، وقول بائع الباذنجان : من يشتري باذنجان ؟ ونحو هذا كثير لا يقصد قائله من ورائه إلى أن يقول شعراً ، وإنما هي كلمات تعبر عن حاجات مباشرة في الحياة اليومية ، حاجات لا تستند إلى معاناة فنية ولا تصدر عن خبرة بالتجربة الشعرية .

وثانيهما ـ أي ثاني النوعين اللذين يخرجهما العروضيون من الشعر باشتراطهم (القصد) في تعريفه ، تلك النصوص التي توافق بعض الأوزان الشعرية التي يمكن العثور عليها في بعض آيات القرآن الكريم وبعض ما ورد من أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإن في تلك الآيات والأحاديث قدراً من التشابه مع الشعر في الشكل من حيث إمكان العثور على أوزان لها في الشعر .

ويمثل لهذا بنحو قوله تعالى في سورة المؤمنون[2] : ﴿ هيات هيهات لما توعدون ﴾ ، وقوله سبحانه في سورة فاطر[3] : ﴿ من تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ ، وقوله جل شأنه في سورة سبأ[4] : ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ ، وقوله عز وجل في سورة الطلاق[5] : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ، وقوله عز من قائل في سورة الإنسان[6] : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ ، وقوله تعالى من سورة التوبة[7] : ﴿ ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ ، وقوله عز وجل في سورة الماعون[8] : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ وقد قرىء : ﴿ فذاك ﴾ ، وقد ضمنه أبو نواس بصورته هذه في شعره فقال :

وقرأ معلنا ليصدع قلبي
والهوى يصدع الفؤاد السقيما

أرأيت الذي يكذب بالدين
فذاك الذي يدع اليتيما

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢٨٨/١ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٢٨٣/٥ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والشعر والشعراء له ، في مواضع متفرقة فيهما ، وفي إعجاز القرآن للباقلاني نماذج من ذلك .

(٢) من الآية (٢) من سورة المؤمنون .

(٣) من الآية (١٨) من سورة فاطر .

(٤) من الآية (١٣) من سورة سبأ .

(٥) من الآية (٣) من سورة الطلاق .

(٦) من الآية (١٤) من سورة الإنسان .

(٧) من الآية (١٤) من سورة التوبة .

(٨) من الآية (٢) من سورة الماعون .

وقوله سبحانه في سورة الأنفال(1) : ﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ ، وقد ضمنه الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي في شعره فقال(2) :

يا من عدي ، ثم اعتدى ، ثم اقترف
ثم انتهى ، ثم ارعوى ، ثم اعترف

أبشر ؛ يقول الله في آياته
إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وقد لجأ بعض الكتاب والشعراء إلى استعمال هذا النوع من الآيات الكريمة في أعمالهم على سبيل (الاقتباس) وفي ذلك من الخلاف بين الفقهاء ما فيه ؛ فمنهم من رده مطلقاً وحرمه ، ومنهم من رده في الشعر دون النثر ، ومنهم من رده في موضوعات بعينها دون غيرها .

كذلك في الأحاديث المروية عن النبي صلوات الله عليه بعض ما يتشابه ووزن الشعر ، ومما مثل به في هذا الشأن قوله صلوات الله عليه يوم حنين : هل أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت(3) ، وقوله أيضاً : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب(3) .

وقد رأى العروضيون أن شرط (القصد) في تعريف الشعر يخرج هذه النصوص ونحوها مما شابهها من نطاق الشعر ، لأنه لم يقصد بها كونها شعراً ، وإنما أريد لها أن تكون ذكراً ، قال تعالى(4) : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ .

وأما وصف الوزن في التعريف بأنه (عربي) فيريد به العروضيون إخراج تلك الأوزان المستحدثة التي لا ترتد إلى تلك الفترة التاريخية التي استخلص فيها الخليل بن أحمد ما في التراث الشعري من أوزان إيقاعية، ومن هذه الأوزان : السلسلة ، والدوبيت ، والقوما ، وغيرها مما جدّ بعدها من أشكال إيقاعية لا تنتمي إلى ذلك التراث القديم ، على أن من الحق أن نقرر أن هذا الموقف ليس محور إجماع بين العروضيين ؛ فإن منهم من ذهب إلى أن مخالفة المأثور من الأوزان لا تنفي الشاعرية عن النص وصاحبه ، ومن بين هؤلاء الزمخشري فيما يرى الصبيان . وكأن هذا الفريق من العروضيين يرى أن مقومات الشعر لا ينبغي أن ترتبط بشكله فحسب ، أو بالصورة الخاصة التي يعبر عنها هذا الشكل وحدها ؛ إذ إن الشكل الخارجي للعمل الفني نتاج مؤثرات شتى على رأسها ذوق العصر الذي ينتمي إليه هذا العمل ، كما أن الصورة الخاصة التي يقدمها

---

(1) من الآية (38) من سورة الأنفال .
(2) أنظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ 1/ص 148 .
(3) من العلماء من يرى أن هذه النصوص شعر تمثل به رسول الله صلوات الله عليه ، وقد آثرنا عدم كتابتهما على صورة الشعر أخذا بما فعله البخاري ومسلم .
(4) من الآية (69) من سورة يس .

فنان ليست تعبيراً موضوعياً خالصاً يخضع فيه الفنان لتلك القوالب المحفوظة المفروضة عليه من الخارج ، بحيث يتحتم عليه أن يصب فيها تجربته دون زيادة عليها أو نقصان فيها ، وإنما تنطق تلك الصورة بقسمات صانعها نفسه ، فيها من روحه ووجدانه وعقله ، مثل ما في روحه ووجدانه وعقله من انطباعات هي محصلة تجاربه كلها ، الموروثة منها والمكتسبة ، ما انحدر منها عبر الأجيال وما استفاده منها في علاقاته المحدودة بمكان المرتبطة بزمان ، فيها خلاصة تجربة الماضي ، وعصارة الحاضر ، ورؤى المستقبل جميعاً .

بيد أنه لا يفوتنا أن نسجل هنا ملحوظتين على هذا التصور الذي قدمه هؤلاء العروضيون للشعر .

الملحوظة الأولى : أن هذا التعريف الذي قدمه جمهور العروضيين قد أغفل عن عمد اعتبار (القافية) ضمن مقومات الشعر ، وقد علل هؤلاء العروضيون إسقاط القافية بأنه وسيلة ليكون التعريف (جامعاً) يتناول النماذج الشعرية كلها ، ما التزم منها بوحدة القافية وما لم يلتزم بها . وهو موقف ينبغي تسجيله لأن من النقاد من أراد أن ينفي عن الشعر القافية مستنداً إلى هذا الموقف من بعض العروضيين ، مدللاً على ذلك بنحو ما نقله القاضي الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)[1] :

رب أخ كنت به مغتبطاً
أشد كفى بعرا صحبته
تمسكا مني بالود ولا
أحسبه يزهد في ذي أمل
تمسكا مني بالود ولا
أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبدا
فخاب فيه أملي

على أن من الحق أن نقرر أن بعض العروضيين يرفض هذا الاتجاه ، ويدعوا إلى ضرورة التزام التقفية في العمل الشعري[2] .

الملحوظة الثانية : أن التعريف يخرج من إطار الشعر المركبات الإيقاعية التي يتوافر فيها الوزن دون أن تفيد معنى ، إذ إن الفائدة جزء لا يتجزأ من الشعر ، ومقتضى ذلك أن (المعنى) يجب أن يضاف إلى الوزن في تحديد مفهوم الشعر عند العروضيين ، ولكن المعنى - كما ترى - لفظ فضفاض يسع كلمات اللغة المستعملة ولا ينفي إلا المهملة فهو إذاً لا يقف عند ما يصطلح عليه بالمعاني الشعرية ، بل يتناول أيضاً ما يمكن أن يوصف بأنه (حقائق علمية) ، وكأن هؤلاء العروضيين لا يجدون حرجاً في أن يدخلوا ضمن الشعر تلك (المنظومات) التي صاغها

---

(١) أنظر المجاز القرآني للباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ص ٨٤ .

(٢) أنظر مثلاً : العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، تحقيق الحساني حسن عبد الله ص ١٨ .

(العلماء) ليصبوا فيها قواعد العلوم ، كالألفية والرحبية والشاطبية ونحوها .

* * *

نخلص من هذا العرض لمفهوم الشعر عند اللغويين والعروضيين إلى أن هذين الفريقين من العلماء يلتقيان في تصورهما للشعر في ضرورة العناية بالمقومات الشكلية الخارجية للصياغة الشعرية ، وبتعبير آخر نرجو أن يكون أكثر دقة يهتمان في الشكل بما يصطلح عليه بالأوزان الشعرية ، بيد أنهما يختلفان فيما وراء ذلك : أما اللغويون فيؤثرون قصر الشعر على تلك المعاني المنبثقة من « الإحساس » و « الفطنة » معاً ، أو هم يكادون يفعلون ذلك ، تأسيساً على اجماعهم على تأكيد الصلة بين المفهوم الاصطلاحي للشعر والدلالات اللغوية للمادة ذاتها . أما العروضيون فإنهم لا يعنون قليلاً أو كثيراً بمدى تعبير الشعر عن التجربة النفسية أو التجربة العقلية - إذا صح هذا التعبير - إذ أن المهم عندهم هو قدرة الشعر على نقل أفكار ومعان ، يستوي في ذلك أن تكون هذه الأفكار والمعاني نابعة من الإحساس صادرة عن الشعور ، أو منبثقة من التأمل النظري معبرة عن الحقائق العلمية . ومن ثم يجوز لنا أن نصف موقف العروضيين بأنه موقف شكلي صرف ، إذ يجعل الشعر شكلاً فارغاً من كل مضمون ؛ لأنه ثوب يسع أي مضمون ، فليس الشعر عندهم إلا هذه القوالب أو الإطارات التي تصب فيها المعاني صباً ، أياً كانت هذه المعاني التي تصب ، وسواءً أكانت ملائمة لهذه القوالب مناسبة لهذه الإطارات أم منبتة الصلة بتلك القوالب والإطارات .

وليس من شك عندنا في أن هذا الموقف يفقد الشعر أهم مقوماته ؟ إذ يغفل ذلك العالم النفسي والعقلي الذي هو لحمة التجربة الشعرية ومحورها ، كما يهمل ذلك الاتصال الضروري الذي لا سبيل إلى إغفاله بين العالم الداخلي بكل ما فيه[1] والشكل الخارجي الذي يجب أن يكون امتداداً له في تعبيره عنه ، متلاحماً معه في تجسيده لخصائصه كلها ، وتصويره لأبعاده بأسرها .

د . علي أبو المكارم

---

(١) انظر بحثنا عن : الشعر ومقومات الإبداع فيه .

المصادر والمراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، ط ٤ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة .

٢ ـ الإرشاد الشافي على متن الكافي ، للدمنهوري ، ط ١ مكتبة محمود توفيق ـ القاهرة .

٣ ـ أساس البلاغة ، للزمخشري ، ط بيروت .

٤ ـ إعجاز القرآن ، للباقلاني ، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ، ط ١ دار المعارف بمصر .

٥ ـ البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، ط ١ ، القاهرة ،

٦ ـ تاج العروس ، للزبيدي ، ط ١ ، القاهرة .

٧ ـ تهذيب اللغة ، للأزهري ، جـ ١ تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، ط ١ ، القاهرة .

٨ ـ جمهرة اللغة ، لابن دريد .

٩ ـ الزينة ، لأبي حاتم الرازي ، تحقيق الأستاذ حسين الهمداني ، ط ١ ـ القاهرة .

١٠ ـ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق الأستاذ شاكر ، ط ١ ـ القاهرة .

١١ ـ الصحاح ، للجوهري ، جـ ٢ تحقيق الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار . ط ١ .

١٢ ـ ضرائر الشعر ، لابن عصفور ، تحقيق السيد إبراهيم محمد ، ط ١ ـ ١٩٨٠ بيروت .

١٣ ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تحقيق الأستاذ أحمد أمين وزميله ، ط ١ ـ لجنة التأليف ، القاهرة .

١٤ ـ العين ، للخليل بن أحمد ، تحقيق الدكتور عبد الله درويش ، ط ١ ، بغداد .

١٥ ـ عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، ط ١ دار الكتب المصرية ـ القاهرة .

١٦ ـ العيون الغامزة على خبايا الرامزة، تحقيق الاستاذ الحساني حسن عبد الله ، ط ١ .

١٧ ـ القاموس المحيط ، للفيروزبادي ، ط ٣ ـ القاهرة .

١٨ ـ لسان العرب ، لابن منظور ، ط بولاق ـ مصر .

١٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الشعب ـ القاهرة .

٢٠ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، ط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .

٢١ ـ الوافي في العروض والقوافي ، للخطيب التبريزي ، تحقيق الأستاذ عمر يحيى وزميله ، ط ١ ـ حلب .